الرعاية النفسية الوالدية للطفل وتحقيق الشخصية المتوازنة

أ. د. أحمد أوزي *

مقدمة:

إن التقدم الذي تم إحرازه في السنوات الأخيرة في مجال علوم الأعصاب المعرفي (Neurosciences cognitives) وعلم الأعصاب التربوي (Neuroéducation)[١] وعلم النفس المعرفي (Psychologie cognitive)، أمدَّنا بالعديد من المعلومات والمعارف الجديدة، حول الدماغ البشري في علاقته بأسلوب التربية؛ خاصةً في جانبه العاطفي والاجتماعي، وهو مجال له علاقة وطيدة بموضوع الرعاية الوالدية للأطفال الذين يشكلون كائنات ضعيفة، وهشَّة في السنوات المبكرة من حياتهم. وإن من شأن الاطِّلاع على هذه المعلومات الحديثة، أن يغير النظرة إلى الطفل، وإلى أسلوب التعامل معه؛ كما أنها معلومات تثري التفكير والتأمل حول التربية. إن هذه المعلومات تؤكد عجز، وضعف الطفل البشري خلال فترة نموه. وتُعدُّ فترة الحمل والسنوات الأولى من حياته أشد المراحل حساسية.

وفضلًا عن ذلك، فإننا نعيش في مُستهلِّ الألفية الثالثة التي عرفت العديد من الثورات الصناعية والتطورات التقنية التي تركت بصماتها على الإنسان[٢]، وعلى أسلوب حياته وتنشئته، وأوجدت أنظمة أُسَرية متنوعة، ونُظمًا قيمية جديدة أثرت وتؤثر إيجابًا أو سلبًا على بنية الأسرة، ونظامها في ظل عالم مُعولَم جارف، خلخل نُظم المجتمع ووظائف مؤسساته التربوية.

---

* أستاذ علم النفس وعلوم التربية – جامعة محمد الخامس.

1- https://primabord.eduscol.education.fr/qu-est-ce-que-les-neurosciences-cognitives.

تأسس علم الأعصاب التربوي عام ٢٠١٤ على يد ستيف ماسون Steve Masson الأستاذ بكلية التربية بجامعة كيبيك Québec à Montréal ومدير مختبر أبحاث علم الأعصاب، وذلك انطلاقًا من النتائج التي وصل إليها، والتي ترى أن التعليم يغير بنية الدماغ، وأنه يتأثر في وقت معين بالتعلُّم، ويقيده، وأن الممارسة البيداغوجية تؤثر على دماغ المتعلمين وتُحدث بها آثارًا.

٢ – يقول آينشتاين: "لقد أصبح اليوم من الواضح للأسف أن تقنيتنا قد تجاوزت إنسانيتنا".

يقول الطبيب النفسي للأطفال چون باولبي (John Bowlby) (١٩٠٧–١٩٩٠): «يجب على المجتمع الذي يهتم بأطفاله، أن يقوم برعاية والديهم» Une société qui tient à ses enfants doit veiller sur leurs parents، والواقع أنه لا ينبغي رعاية الوالدين فحسب، وإنما رعاية كل الذين يتعاملون مع الأطفال. إن علماء النفس لا يفصلون عادةً بين نمو الشخصية ومجتمعها الذي نشأت فيه وتكونت. وهذا ما يقتضي حشد جهود المجتمع بأكمله للاهتمام بأطفاله؛ لأنهم يشكلون مستقبله، حسب الشكل الذي نعدهم عليه. إن أي مجتمع لا يستطيع مواجهة تحدياته، والاستجابة لها، دون توفير الرعاية الوالدية[١] الكاملة لأطفاله. وتشكل الأسرة الوحدة الاجتماعية الأولى التي ينشأ فيها الطفل؛ مما يجعل الطريقة التي يتفاعل بها أعضاؤها معه، ونوع العلاقات التي يعيشها في حضنها تمثل النموذج الذي سيشكل وفقه تفاعلاته وعلاقاته الاجتماعية في المستقبل، كما أنها المسئولة عن تشكيل أفكاره.

ومن هنا نرى ضرورة التساؤل عن مفهوم الرعاية الوالدية للطفل، والحاجة إليها بشكلٍ عام، والرعاية النفسية بشكل خاص، ومحاولة التعرف إلى أهميتها على صعيد النمو المتوازن لشخصيته، جسميًا، ونفسيًا واجتماعيًا. وما تأثير التفاعل الوالدي على نمو شخصية الطفل نُموًا سَويًا ومتزنًا؟ وما دور الأم في ترسيخ جذور الشخصية السوية خلال تربيتها للطفل؟ وما الانعكاسات النفسية السلبية للأمهات العازبات والأرامل والمطلقات على تكوين شخصية الطفل؟ ولِمَ ازداد اهتمام الأمم المتحدة والجمعية العامة للأمم المتحدة بالأسرة، والرعاية الوالدية في غضون الألفية الثالثة؟

أولًا: مظاهر ضعف الأطفال وعجزهم، وحاجتهم إلى الرعاية المُثلَى

تعتبر فترة الحمل، والسنوات المبكرة من حياة الطفل – كما أشرنا إلى ذلك – أكثر الفترات حساسية. لذلك فإن الخبرات والتجارب التي يعيشها الطفل في هذه الفترة، تقوم بنحت وتغيير دماغه بشكلٍ عميق. فالمحيط الذي يعيش فيه الطفل يؤثر على نمو الخلايا العصبية لدماغه، ويُعد الحرمان العاطفي أحد العوامل الضارة في هذه الفترة.

إن العديد من المفكرين، يرون أن الكائن الإنساني يُولد ويظل لفترة طويلة ضعيفًا وعاجزًا، مقارنةً بغيره من الكائنات الحية الأخرى، فالفيلسوف الفرنسي باسكال (Blaise Pascal) (١٦٢٣ –١٦٦٢) يرى أن الكائن الإنساني عند ولادته، يكون أضعف من البُرْعُم Bourgeon

١– يشير مفهوم الرعاية الأبوية إلى أي سلوك يُسهم في بقاء النسل.

الرقيق، الشفاف، الذي ينبت بجانب مجاري المياه، ويستطيع تحمُّل قساوة الطبيعة وشدتها.

والواقع أن هناك العديد من المظاهر التي تبرز ضعف الكائن البشري في طفولته، وأوضحها العجز والهشاشة التي يكون عليها في السنوات المبكرة؛ مما يستوجب رعايته وحمايته والاهتمام به. وهذه الرعاية لا ينبغي أن تبدأ فقط عند ولادته، وإنما قبل ذلك؛ أي في المرحلة الجنينية التي يبدأ فيها تكوينه، وهي مرحلة كثيرًا ما نقفز عليها، ولا ندخلها في عمر الإنسان، ونكتفي باحتساب عمره بدءًا من الولادة. إن كل ما يُسْهم في جعل فترة الحمل فترة مريحة بالنسبة إلى الحامل، من شأنه أن يجعل مستقبل الطفل جيداً.

وعن أهمية المرحلة الجنينية قال العالم البيولوچي چان روستان (Jean Rostand) (١٨٩٤–١٩٧٧): "إن الذي لا يعرف الإنسان إلا عند ولادته، فهو قطعًا لا يعرفه".

ومن مظاهر قصور الطفل البشري وعجزه، أن بعض صغار الحيوانات، تأتي إلى هذا العالم وهي أكثر كفاءةً منه، وتستطيع الدفاع عن نفسها، دون الحاجة إلى إشراف والديها وتدخُّلهم. إن صغار السلاحف البحرية، على سبيل المثال، تفقس بيضها على الرمال في الشاطئ، ثم تسلك طريقها مباشرة إلى مياه المحيط. كما أن صغار الزرافة الحديثة الولادة قادرة على التسلق منتصبة، والتجول بمفردها في غضون ساعات قليلة من ولادتها. هذا، وإن كانت الرعاية الوالدية لا تظهر كسلوك والدِيّ لدى الإنسان فحسب، وإنما تظهر أيضًا لدى العديد من الحشرات، بما في ذلك الحشرات الاجتماعية كالنمل، والنحل والدبابير؛ ولدى بعض الأسماك، وعلى نطاق واسع لدى الطيور، غير أنه، وبالرغم ذلك، فهي لا تستغرق مدة الرعاية التي يحتاج إليها الطفل البشري.

لذلك يحقُّ لنا التساؤل، عن سبب احتياج الكائن البشري، في بعض الأحيان، إلى قضاء ثُلُث أو حتى نصف معدل حياته، وهو لا يستطيع بعدُ الاعتماد على نفسه؟ ألا يوجد طلاب في الجامعة وعمرهم وصل إلى الثلاثين سنة، وهم لا يزالون غير مستقلين عن أُسَرهم، يتأخر المجتمع في إدماجهم، ويطالبهم بتعلُّم وتكوين عالي المستوى؟

علينا أن ندرك في البداية أن الرعاية الوالدية تزيد من القدرة النمائية للأبناء الذين يتلقونها، إلا أن لها تكلفة باهظة على الأبوين، حيث يتم إنفاق طاقة كبيرة عليهم. ويمكن اعتبار العجز الشديد للطفل حديث الولادة، جزءًا من استراتيچية الإنجاب، ليصبح شخصًا بالغًا بشكل أفضل؛ لأنها تسمح له باستثمار كل ما هو متاح.

إن الوليد البشري في الشهرين الأوَّلين من الحياة لا يستطيع رفع رأسه دون مساعدة،

ولا يستطيع التدحرج قبل أربعة أشهر، ولا يستطيع الجلوس قبل بلوغ ستة أشهر، ولا يبدأ محاولات الوقوف قبل بلوغ تسعة أشهر، ولا يشرع في استخدام الخطوات الأولى للمشي قبل بلوغ العام.

إن هذا التأخر في اكتساب مهارات البقاء في قيد الحياة، والاعتماد على الذات، يرجع إلى أن الطفل أو الرضيع البشري يقوم بصقل هذه المهارات المطلوبة؛ لذلك فهو يقضي على الأقل عامًا آخر معتمدًا على والديه أو على مُقدِّمي الرعاية والحماية. بل يمكن القول، إنه يقضي عقدًا من الزمان قبل أن يتمكن من البدء في التنقل في مناطق العالم بمفرده. ولا بأس في ذلك، حسب الخبراء، لأن هذه المدة تُعدُّ مقايضة لاكتساب جزء من القدرات التي يحتاج إليها؛ لامتلاك دماغ متطور، قادر على إدارة التفكير المعقد، وتدبيره، والتواصل، والتفاعل الاجتماعي، جنبًا إلى جنب مع تنمية متطلبات قدرات جسمه. إن الكثير من الحيوانات مثل الطيور تحتاج إلى ترك أعشاشها، وأوكارها والتحرك بسرعة؛ لأن البالغين في حالة تنقل مستمر، مما يهدد حياتهم؛ لأنهم في حالة عجز ولا يستطيعون حماية أنفسهم. وهناك بالطبع فروق فردية بين الحيوانات، من حيث ضعفها وعجزها وقدرتها بمجرد الولادة. إذ هناك أجنَّة تقضي وقتًا أطول في التطور داخل بيضها كالبط والدجاج، مثلًا. وهناك حيوانات تنمو وتكتسب بعض القدرات قبل ولادتها كما هو الحال، بالنسبة إلى مواليد الخيول التي تستطيع الوقوف، والمشي بشكل مستقل، بعد الولادة بفترة وجيزة. وقد نتساءل عن ضرورة استمرار الحمل مدة تسعة أشهر تقريبًا؟ من المعروف لدى العلماء أن أدمغة وجمجمة الأطفال في طور النمو، ولا يمكن أن تنمو بشكل أكبر مما هي عليه في الرَّحِم لأن الجنين لا يستطيع المرور في حوض الأم. وقد بينت الدراسات أن فترة الحمل التي تبلغ في المتوسط تسعة أشهر، هي على الأرجح أطول فترة يمكن للمرأة أن تحافظ فيها بأمان على تغذية الجنين والحفاظ عليه أثناء الحمل.

ويُفسر الطريق الطويل الذي يقضيه الكائن البشري في النمو، من رضيع حديث الولادة، إلى طفل، إلى راشد، بمقدار ما يحتاجه من التعلُّم، واكتساب الخبرات من والديه. تَعلُّم سلوك التواصُل والسلوك الاجتماعي وغيره. وكلما كانت المعلومات التي ينبغي أن يكتسبها كثيرة ومعقدة إلا وزادت أهمية الرعاية الوالدية؛ بهدف دمجه كوافد جديد في سلوك وأنماط ممارسات مجتمعه. وهكذا، فإن الفترة الطويلة للعجز النسبي لدى المولود البشري تقود في النهاية إلى تحقيق مكاسب معرفية كثيرة. إن هناك الكثير من النمو والنضج الذي يحدث في قشرة الفَصّ

الجبهي للدماغ، والذي يستمر حتى بعد فترة البلوغ، وهو ما يتيح معدل نضج أطول ونمو ونضج التفكير الأكثر تعقيدًا[1].

جدول يقارن بين قدرات وليد الإنسان ووليد الحيوان

قدرات صغار الحيوان	قدرات صغار الإنسان
- تأتي بعض صغار الحيوانات إلى هذا العالم أكثر كفاءةً من صغار الإنسان؛ - تستطيع الدفاع عن نفسها، دون الحاجة إلى إشراف والديها وتدخلهم؛ - صغار السلاحف البحرية، على سبيل المثال، تفقس بيضها على الرمال في الشاطئ، ثم تسلك طريقها مباشرةً إلى مياه المحيط. - صغار الزرافة الحديثة الولادة قادرة على التسلُّق منتصبة، والتجوُّل بمفردها في غضون ساعات قليلة من ولادتها؛ - مواليد الخيول تستطيع الوقوف، والمشي بشكل مستقل، بعد الولادة بفترة وجيزة. هناك حيوانات تنمو وتكتسب بعض القدرات قبل ولادتها، كما هو الحال مثلًا بالنسبة إلى مواليد الخيول.	- الوليد البشري في الشهرين الأولين من الحياة لا يستطيع رفع رأسه دون مساعدة؛ - لا يستطيع التدحرج قبل أربعة أشهر؛ - لا يستطيع الجلوس قبل بلوغ ستة أشهر؛ - لا يبدأ محاولات الوقوف قبل بلوغ تسعة أشهر؛ - لا يشرع في استخدام الخطوات الأولى للمشي قبل بلوغ العام. - لهذا؛ فإن فترة الحمل رمزيًا تحتاج ما بين ١٨ إلى ٢١ شهرًا وليس تسعة أشهر فقط؛ حتى يولد الطفل في مرحلة نمو عصبي ومعرفي مماثلة لمولود الشمبانزي؛ - يتأخر إدماج الفرد في المجتمع. - يظل الإنسان في حاجة إلى تجديد وتطوير خبراته في الحياة؛ ليستطيع تحقيق أفضل تكيُّف مع بيئته.

ثانيـًا: حاجة الطفل البشري إلى الرعاية الممتدة

إن الرضيع البشري يدخل إلى العالم، وهو شديد الاعتماد على والديه مقدمي الرعاية؛ لتلبية

1. https://www.livescience.com/54605-why-are-babies-helpless.html.

حاجاته الأساسية. على الرغم من أن المواليد الجُدد من أنواع الثدييات الأخرى تعتمد على مقدمي الرعاية أيضًا، فإن الأطفال الرُّضَّع لا حول لهم ولا قوة لأن أدمغتهم متخلفة نسبيًا.

إن الجنين البشري، وفق بعض التقديرات، ينبغي أن يمر بفترة حمل تتراوح ما بين ١٨ إلى ٢١ شهرًا بدلًا من التسعة المعتادة؛ حتى يولد في مرحلة نمو عصبي ومعرفي مماثلة لتلك الخاصة بمولود الشمبانزي.

يولد الجنين وحجم دماغه لا يتجاوز ٣٠٪من حجم دماغ البالغ. ويواصل نموَّه خارج الرَّحِم ليتضاعف حجمه تقريبًا في السنة الأولى. وهذا ما يفرض دعم الأسرة في المجتمع، باعتبارها بيئة طبيعية حاضنة لنمو الأطفال وحمايتهم.

إن الفصل الذي يتم في بعض الأحيان، بين الوليد الإنساني وبين أُمِّه، يجعل منهما ضحية الإحساس بالقلق والحزن الذي يعود إلى النقص المفاجئ لمادة Ocyctonie ومادة Endorphine الذي يسببه الانفصال. ومن هنا نفهم ضرورة تجنب فصل المولود الجديد عن أمه، وعندما يتعرض الوليد لمرض ينبغي نقله إلى المصحة للإنعاش أو إلى مستشفى طب الأطفال، ومن المهم في هذه الحال أن تكون هناك إمكانية وجود والديه معه.

إن دماغ الأطفال والمراهقين قابل للإعطاب بفعل المعاملة السيئة التي يمكنها أن تؤثر على النمو العام للدماغ، والذكاء الاجتماعي، والذكاء المعرفي.

تُظهر الدراسات العلمية أن العطف الذي يتمتع به الأطفال منذ سن مبكرة من والديهم أو من الأشخاص المحيطين بهم، له آثار إيجابية على نمو أدمغتهم وهي مَوْطن العقل والتفكير.

علينا أن ندرك أن الطفل لا يستجيب بالشكل الذي يستجيب به الراشد، لا لأنه لا يعرف أو لا يريد، وإنما لأنه لا يستطيع بعد؛ لأن بنياته وشبكته العصبية، لم تَحِنْ وظائفها بعد، فهي لا تزال بحاجة إلى النضج، وأن ضبط سلوك الطفل يتم عبر الفَصّ الجَبْهي للدماغ، وهي منطقة تشكل أرقى منطقة في الدماغ ونموها يأتي متأخرًا.

وعلينا أن ندرك كذلك، بأن تدخل الأبوين في كل موقف من مواقف الطفل، وتصرفاته، والقيام بإيقافه، يُفقده الرغبة في تحقيق أي تجربة جديدة، ويُبطئ لديه عمل الجهاز المكلف بمادة

١- يُقصد بالإساءة العاطفية إلى الطفل أي شيء يمنحه الإحساس بالإذلال والعار وله عواقب وخيمة عليه.

2. Michelle Bourassa & Mylène Menot- Martin & Ruth Philon (2007). Neurosciences et éducation pour apprendre et accompagner, deboeck, Louvain, p. 4001.

دوبامين (Dopamine) التي تغدو مادة قليلة لديه؛ مما يُفقده متعة الحياة، والنزوع إلى ترك مختلف الأعمال إلى الغد وضعف الأداء[٢].

إنه لا يوجد دماغ منعزل، فالدماغ يُبنى خلال التفاعلات مع الآخرين، ويُنمى بكيفية لائقة بفضل الأشخاص الذين يهتمون برعايتنا، ولهم محبة، وعطف علينا، ولن يكون هؤلاء سوى الوالدين Louis Cozolino[١].

ولرعاية الطفل وتلبية حاجاته الخاصة وإدراكها، ينبغي معرفته، عن طريق التفاعل معه، وقضاءُ وقتٍ كافٍ معه، في كل مرحلة من مراحل نموِّه. وحسب العديد من الدراسات المعاصرة، فإن العلاقات بين الوالدين والطفل ليست على ما يرام، فالأبوان لا يقضيان الوقت الكافي للتفاعل مع الطفل. فكيف والحل هذه نربي طفلًا لا نعرفه. حسب دراسة قام بها أحد أساتذة طب الأطفال في أمريكا، يقضي الأطفال معدل ٢١ ساعة في الأسبوع؛ أي ثلاث ساعات يوميًا أمام التلفاز، دون احتساب مشاهدة بقية الشاشات الأخرى، بينما الساعات التي يقضونها في التفاعل مع الوالدين جِدَّ قصيرة، لا تتعدى ٣٨ دقيقة في الأسبوع. ونجد أن الدراسات التي تهتم بالوقت الذي يخصصه الوالدان لأطفالهم قليلة جدًا.

يرتبط نمو دماغ الطفل ارتباطًا شديدًا بتفاعلاته مع غيره، وذلك بشكل يأخذ بعين الاعتبار غنى الطفل وتعقده العاطفي والانفعالي ومشاعره. إن نوع العلاقات الجيدة مع الطفل، وبشكل خاص تلك العلاقات التي يتخللها الاحترام والعطف والحب مع الراشد، تُمكِّن دماغه من النمو والتفتح بشكل جيد، وهو ما يساعد على التفتح الإنساني أيضًا. فالخبرات والتجارب المختلفة التي يعيشها الطفل تؤثر على سيرورة دماغه. مع الأسف، هناك العديد من المواقف في الحياة اليومية، نحصر فيها الوثبات الحيوية (Elan vital) للطفل ونشاطه. على سبيل المثال، كثيرًا ما نوقفه عن اللعب، وهو نشاط يساعده على تطوير تدريجي لنموه العقلي. فالطفل خلال اللعب يسأل، ويرغب في الفهم، لماذا مثلًا لا يستطيع أن يُدخل قطعة من لعبته الدائرية الشكل في حفرة مربعة الشكل، رغم أنه يقوم بجهد لإدخالها، وهو في هذه الحال يمارس أحكامه العقلية.

من خلال اللعب يكتشف الأطفال في سن مبكرة الكثير من الخبرات، التي تنمي لديهم الثقة في الذات، فهم مثلًا يشيدون الأبراج لمجرد مشاهدتها وهي تسقط. كما أنهم يحاولون معرفة ما يمكن صنعه بأشياء في متناول أيديهم، وبذاك يبدُعون في فهم الكون من حولهم.

١- أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد.

تُعدُّ مرحلة الطفولة مرحلة مهمة في حياة الانسان، خلالها تُؤسَّس العديد من دعائم الشخصية وتكوينها، وهي التي تحدد نوع مستقبله. ففي السنوات الأولى يتبلور ذكاؤه، وتُنمى العديد من القدرات العقلية التي تشكل بوصلة قيادته في الحياة. ومن هنا، وجب الاهتمام به ورعايته. ويُعدُّ فهم دماغ الطفل ووظائفه مدخلًا أساسيًا لتربيته وتعليمه. كما يساعد ذلك على تخطيط المنهاج الدراسي، واختيار الطريقة البيداغوجية التي تتفق وطبيعة الطفل وأسلوب تعلُّمه. وهذا ما يحفز على تضافر جهود علوم التربية وعلوم الأعصاب المعرفية، وعلم الأعصاب التربوي، وعلم النفس المعرفي.

ثالثًا: أهمية العلاقات التفاعلية بين الأبوين والطفل

الطفل عند ولادته لا يشكل لوحة فارغة كما يعتقد البعض، فخلفيته الجينية تفسر سبب وجود الاختلافات بين شخصية الأطفال منذ بلوغهم ستة أشهر. تؤثر جيناته بشكل خاص على إفراز الهُرْمونات التي تسبب النمو أو الضعف العاطفي. إن الاندفاع، والقلق أو العدوان الأكثر تحديًا، يكون قويًا لدى الأطفال، في أغلب الحالات، عندما يعاني آباؤهم من ذلك. غير أنه ليس هناك حتمية قطعية في تأثير الجينات على هذا السلوك أو ذاك، إذ يمكن تعديله بالخبرات والتجارب، وتغيير نوع العلاقات القائمة بين الوالدين والطفل، سواء أكانت علاقات لفظية أم غير لفظية. وفي جميع الحالات، فإن استقرار الشخصية لا يتم قبل سن الثلاثين.

تُعد مرحلة الطفولة الأرض الخصبة لزرع الثقة في الذات لدى الأطفال، ولها دور رئيس في إكسابهم سمات الشخصية الإيجابية، وقد بينت العديد من الدراسات أن تقدير الذات بشكل إيجابي يأتي من البيئة الأسرية، والمدرسية التي تلتزم بالإشراف اليقظ والدافئ، والانضباط الحازم، والمتسق. كما يأتي ذلك من خلال ممارسة التواصل غير العنيف، وتجنب العقوبات، وجميع أشكال العنف الجسدي، واللفظي الذي يخلق التوتر، والخوف، والضعف الذي يقوِّض جودة العلاقات الاجتماعية. إن غرس الثقة في نفسية الطفل بمثابة المحرك الدينامي الأساسي الذي يشجعه، ويحفزه على العمل والمثابرة.

جدول يبين نماذج من العادات التي تنمي شخصية الطفل إيجابيًا

نماذج من العادات التي تنمي شخصية الطفل بشكل إيجابي

هناك العديد من العادات التي يمكن أن تساعد على تنمية شخصية الطفل بشكل إيجابي، منها:

١. تعويد الطفل على الثقة في نفسه، من خلال تشجيع تجاربه دون أن تفرض عليه الخوف؛
٢. تجنب العقوبات أو جميع أشكال العنف الجسدي واللفظي التي تخلق التوتر والخوف والضعف، وتعمل على تقويض جودة العلاقات وتثبيت مواقف معادية للمجتمع؛
٣. اللجوء خلال التعامل مع الطفل إلى وضع القواعد وعرض الخيارات أمامه، بدلًا من فرض الأوامر والتهديدات؛
٤. مشاركة الطفل في الأنشطة المختلفة ومنحه الاهتمام الكافي الذي يحتاجه للتعرف إلى مشاعرنا والتعبير عنها، ومساعدته على فعل الشيء نفسه؛
٥. ممارسة التواصُل الهادئ، وغير العنيف مع الطفل، وملاحظة جهوده، وتقدير نيَّاته، وتجنب الابتزاز العاطفي في التصرف معه؛
٦. إشراك الطفل في قراءة النصوص والقصص التي تحتوي قيمًا إيجابية ومناقشتها معه؛ لتطوير مهارات التفكير وتنمية أساليب التعبير اللغوي.

الأطفال الصغار بحاجة إلى راشدين وَدُودِين يحاطون بهم. يُعبِّدون لهم الطريق، ويربونهم في مناخ دافئ، ومحبوب، ويحترمونهم، ويمنحونهم الثقة في ذواتهم، وفي الحياة. الطفل الذي لم يتعود في صغره سوى على القساوة، والشدة والصلابة، وعدم الاحترام، سيعرف دماغه تغيرًا بفعل هذه البيئة التي تترك عليه انعكاسات سلبية، تؤثر على قدراته المعرفية، والعاطفية، وعلى مزاج شخصيته وسماتها التي تغدو في مظاهرها شخصية قلقة، ومكتئبة، وعدوانية، تنعكس تصرفاتها على علاقاته بغيره في المجتمع.

ومن هنا، فإن المعاملة المتسمة بالقساوة الجسمية أو النفسية خلال الطفولة، تعوق النمو السويّ والمتوازن للأطفال، ولها عواقب وخيمة على حياتهم في الرُّشْد، من الناحية الجسمية، والنفسية، وبإمكانها أن تترك بصمات مؤثرة على الجيل اللاحق في المجتمع. فالإساءة النفسية

أو الجسدية إلى الطفل، من شأنها أن تعرقل النمو الجيد، ولها تأثير سلبي على حياته؛ مما يكلفه ثمنًا باهظًا على صعيد شخصيته؛ بسبب عدم نموِّه وتفتُّحه، ومن شأنه أن يكلف المجتمع كذلك؛ لأنه يتحمل مسئولية معاناته الجسمية، والنفسية، التي تكون أحيانًا شديدة، ويتحمل كذلك صعوباته التعلُّمية، واضطرابات سلوكه، الذي يمكن ترجمته بتصرفات العدوان والانحراف.

هذه المعارف حول الطفل وعالمه، لا تبخس دور الراشدين ولكنها تجعلهم أكثر وعيًا، وأكثر مسئولية تجاه الطفل. وهي كذلك معلومات تفيد الطفل وتجعله يدرك في سن مبكرة، كيف يعيش عاطفيًا واجتماعيًا، إذا حصل بنفسه على ما هو ضروري منها؛ لينمو وتتفتح شخصيته، ويقوم من جهته بتقاسمها مع محيطه ونقلها إلى أبنائه في المستقبل.

ولكي تتفتح شخصية الطفل، فهو بحاجة إلى الحب اللامشروط، الحب الذي يتيح له الفهم والقبول كاملًا على ما هو عليه، بنوره وظلامه. وهذا الحب يتقبل انفعالاته، ومشاعره التي تخالجه، وأحزانه، وأفراحه، حماسه وغضبه، غيرته وقلقه، إلخ، على الرغم من أن هذا يضايق والديه كثيرًا.

"يغذي الحب اللامشروط، الطفل، ويساعده على النمو بانسجام. وعندما يتوصل الطفل بهذا الحب، فإنه يحس إحساسًا عميقًا بالأمن الداخلي. يحس بالثقة والسلام، وينمي الشعور بتقدير الذات، وتنفتح ثقته على غيره في الحياة. إن هذا الغذاء الذي لا بد من تقديمه إلى الطفل غير موجود أو نادر جدًا. بعض الآباء لا يمكنهم منحه لأنهم لم يتوصلوا به، ولم يعرفوه طيلة حياتهم. يرغب العديد من الآباء في التعاطف مع أطفالهم، لكنهم يفشلون في ذلك؛ لأنهم أنفسهم لم يتلقوه"[1]. "فاقد الشيء لا يعطيه" – كما يُقال.

بعض الآباء أحيانًا لا يفكرون في حب ابنهم، إلا عندما يكون طفلًا مطيعًا و"عاقلًا"، أو إذا حصل على درجات جيدة في المدرسة. وهذا ما يُفقد الطفل بوصلة التوجه، وعدم معرفة نفسه. يضيع ولا يشعر بأنه محبوب في ذاته، فهو محبوب فقط بما يحققه ويُشبع والديه ويُفرحهم.

هذا النوع من السلوك الوالدي "يضر بجزء أساسي من الدماغ، وهي منطقة القشرة الأمامية، التي تسمح لنا بأن نكون متعاطفين، وأن نضبط عواطفنا وانفعالاتنا، وأن نكون قادرين على اتخاذ القرارات، واكتساب الحس الأخلاقي"[2].

إن الابتزاز العاطفي للطفل، واستخدام أسلوب الخوف، والتهديد، والعنف اللفظي، والجسدي في تربيته وتعليمه، له عواقب وخيمة على نمو دماغه وعلى فقدان الثقة في ذاته.

1. Dr. Catherine Gueguen (2014). Pour une enfance heureuse, Robert Laffont, Paris, P. 235.
2. Ibid.P.113.

وفي جانب آخر، فإنه كثيرًا ما تؤدي العلاقة العاطفية غير المتوازنة بين الأبوين، وهي العلاقة الخالية من المودَّة، والمحبة إلى توجيه الطاقة العاطفية إلى الطفل، سواء بالإفراط في التساهل أو الإفراط في التشدد في معاملته. وبشكل عام، فإن الرعاية الوالدية المتسمة بالتسامح والتساهل مع الأطفال كأسلوب تربوي في التنشئة والتكوين، تجعل الطفل باستمرار مرتبطًا بوالديه، ومتكلًا عليهما، وغير قادر على بناء شخصيته المستقلة، أو غير قادر على تحمُّل المسئولية، واتخاذ القرارات اللازمة في الوقت المناسب، كما أن شخصيته تعاني صعوباتِ الخضوع للضبط والنظام. هذا فضلًا عن أنه يجد صعوبة في الاختلاء إلى ذاته للتحاور معها.

رابعـًا: أهمية التفاعل بين الأم ووليدها

هناك أهمية كبيرة لحصول الأم بعد الإنجاب على عطلة طويلة؛ لأن الطفل الذي يحصل على الرعاية الكافية من قِبل الأبوين، في السنوات المبكرة يقوم باستثمار مستقبلي مهم له، ولمجتمعه؛ لأنه استطاع أن يشبع الحاجات الأساسية التي تمنحه جذورًا قوية تساعد على النمو المتوازن، وسيغدو في المستقبل راشدًا ناميًا ومتفتحًا. لهذا؛ فإن الدول التي تمنح عُطَل الولادة الطويلة للأمهات لا تخسر اقتصاديًا، وإنما تستثمر في الحصول على موارد بشرية سويَّة تنمي مجتمعاتها.

والرعاية الممنوحة من قِبل الأم لطفلها متعددة ومختلفة، بحسب الأمهات وأسلوبهن التربوي. ويُقدَّر دور الأمومة بحسب التأثير الإيجابي الذي يُحدثه في نضج شخصية الطفل. أما الغياب المتكرر للأم عن ابنها، والنقص في تغذيته العاطفية، فهو يشكل كارثة حقيقية بالنسبة إليه؛ بسبب النقص الكبير الذي يقع ضحيته [1]. وهذا النقص لا يتأثر به الجانب النفسي والعاطفي فحسب، وإنما يمتد ليشمل الجانب العقلي أيضاً [2].

الواقع أن الحب المُبالغ فيه من قِبل الأم لابنها، لا يخدم الطفل، بقدر ما يخدم أمه. وإذا كنا قد تحدثنا من قبل عن أطفال يشكون من نقص التغذية العاطفية، فإنه بإمكاننا كذلك أن نتحدث عن أطفال يشتكون من التخمة العاطفية، وكلا النوعين من التغذية العاطفية مُضرّ بالطفل.

هذا النوع من الأمهات يجهلن طبيعة الطفل وحاجاته؛ ومن ثمة، فإنهن كثيرًا ما يرغبن في صدور استجابات مثالية عن الأطفال، وكأنهم كائنات من دون عيوب، وينبغي أن يكونوا راشدين في سلوكهم وتصرفاتهم. إن الأمهات المفرطات متشددات في سلوكهن مع الأطفال، دون وعي

1. Dr. D. Winnicott (1957). L'enfant et sa famille, Payot, Paris. P. 15.

٢. د. أحمد أورزي، الذكاء والغذاء العاطفي للطفل، مجلة علوم التربية، العدد الحادي عشر، أكتوبر ١٩٩٦.

منهن بطبعهن غير السويّ في حبهن للطفل والتعامل معه. إن عاطفة الأمومة الشديدة تضع غشاوة قاتمة على عينَي الأم، فلا تستطيع إدراك حاجات طفلها وإشباعها. كما أنها لا تستطيع في الوقت ذاته، الوعي بتصرفها الذي يسيء إليه من الناحية التربوية. إن ما يميز الأم المفرطة في حب طفلها عن الأم العادية، أن الأم العادية تدرك أن تربية طفلها تعني تعليمه كيفية الاستغناء عنها، وهو بالضبط ما تخافه وترفضه الأم المفرطة في حماية طفلها.

إن الطفل الذي يتعرض لمثل هذه العواطف "الخانقة" لا يقف بدوره تجاهها موقفًا سلبيًا، وإنما يستجيب لها بأنماط سلوكية مختلفة، أفاضت دراسات علم النفس المَرَضيّ في وصفها، كنقصان شهية الطفل إلى الطعام، والتبوُّل اللاإرادي، والإمساك، وضعف التحصيل الدراسي، إلخ. وهي ردود فعل على الحرص الشديد للأم على التفوق الدراسي. وقد نجد أن هناك أطفالًا لا يصدر عنهم رد فعل مقاوم لهذه القيود العاطفية الجامحة، وإنما يستسلمون لها، ويتركون أنفسهم يُسحقون تحتها، وهم الأطفال الذين تظهر عليهم سمات وأعراض الطفل "العاقل" الذي لا يُقلق أمه، وإنما يمتثل باستمرار لأوامرها، والأم سعيدة بتصرفه. وكثيرًا ما تكفي إشارة بسيطة من الأم ليفهم ابنها قصدها. غير أن هذا الأمر يكون مآله التغيير القوي والجذري في مرحلة المراهقة. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الأطفال الذين يُظهرون هذه السلبية العاطفية الشديدة يؤدون الثمن في كبرهم، حيث إن الحماية المفرطة منعتهم من مواجهة واقعهم والاحتكاك بصعوباته ومشاكله منذ الصغر، وحرمهم من تكوين شخصية قوية قادرة على مواجهة الصعوبات المختلفة التي تحفُّ الحياة، فقد يُظهرون شخصيات ضعيفة أمام المشاكل التي تعترضهم، وذلك لشدة توقفهم العاطفي في مرحلة نمائية معينة دون تجاوزها؛ بسبب وقوعهم تحت حماية زائدة، وينتج عنها عدم القدرة على قطع الحبل السُّرِّي العاطفي الذي يربطهم بأمهاتهم.

إن هذا الأمر يصدُق بالنسبة إلى الذكور والإناث معًا، فأسلوب الحماية المفرطة كثيرًا ما يجعل طفلة ما بنتًا صغيرة طيلة حياتها، حيث تجهل حقيقة الواقع بمشاكله ومرارته. إنها تُلقَّحُ ضد كل الأمراض المُعدِية، ما عدا الأمراض الاجتماعية التي ستحتكُّ بها كل يوم، عندما تنتقل إلى المجتمع الكبير. وتصبح تبعًا إلى ذلك عاجزة عن مواجهة أقل المشكلات والصعوبات التي تواجهها كل امرأة في حياتها. وكما يقول "أندري بيرج" (André Berge): «إننا كثيرًا ما ننسى أنه لا يوجد أكبر خطر يفوق خطر عدم التعرض لأي خطر كان».

خلاصة القول، فإن علاقة الطفل بأمه تلعب دورًا رئيسًا في بناء شخصيته. ويتميز هذا البناء

بالقوة أو الهشاشة، حسب طبيعة الأم ذاتها، وحسب ما إذا كانت شخصيتها بدورها شخصية سويَّة أم مَرَضيَّة، تعيد إنتاج نفسها في أبنائها. والواقع أنه من الصعب تحديد الأم المثالية التي تتصرف بحكمة ورزانة وتعقُّل وتكيل عواطفها ومحبتها لطفلها ولأفراد أسرتها بمكيال دقيق، ومتفق على معياره. ومن هنا صعوبة الأمومة ومهمة التربية بشكل عام، وعنها قال مؤسس التحليل النفسي (S. Freud) إن هناك ثلاث مهن تُعدُّ من المهن المستحيلة أي الصعبة، وهي: التربية، والحكم، والتحليل النفسي (Eduquer, Gouverner et psychanalyser).

خامسًا: الطفل الوحيد الأبوين وأبناء العازبات والأرامل

يمكن القول بأن تواجد الزوجين في الأسرة من شأنه أحيانًا أن يذلِّل العديد من الصعوبات التي تحفُّ بالطفل، وذلك لما يمكن أن يقوم به أحد الأبوين مكان الآخر. وهذا ما يدعو إلى التساؤل عن الوضعية الصعبة للطفل الوحيد الأبوين؛ أي الطفل الذي يعيش مع أمه بمفردها، دون وجود الأب لسببٍ من الأسباب. ولعل الصعوبات التي يعاني منها الأطفال الذين نشئوا في مثل هذه الظروف ستختلف تبعًا لاختلاف الأسباب التي أدَّت بأمهاتهم إلى العيش بمفردهن.

الأمهات العازبات: أدت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة، إلى إحداث العديد من التغيرات في أنماط العلاقات، والحياة الاجتماعية للأفراد؛ وخاصة بعد خروج المرأة إلى العمل وهجرتها من القرى إلى المدن، أو الهجرة من مدينةٍ إلى أخرى أو الهجرة من بلدها الأصلي إلى بلد آخر بدافع البحث عن العمل أو مواصلة الدراسة، حيث لم يعُد الترحال، لهذه الأهداف حكرًا على الرجال وحدهم. وترتب عن هذه التغيرات الاجتماعية أن أصبحت العديد من الفتيات يتحملن بمفردهن مسئولية تدبير شئونهن بأنفسهن. إذ كثيرًا ما نعاين ظاهرة استقلال الفتاة العاملة أو الموظفة أو الطالبة بنفسها في مدينة من المدن وتحملها للمسئولية. وقد لا تقتصر هذه المسئولية على الجانب الاقتصادي، وإنما تمتد لتشمل أيضًا الجانب النفسي والعاطفي؛ وخاصة عندما تتورط في علاقة عاطفية غير مُتوَّجة بالزواج الشرعي.

ومن غير شك، أن الطفل الذي يتم إنجابه من قِبل هذه الأم العازبة سيُضطر إلى العيش في ظروف مختلفة عن ظروف الطفل الذي تم إنجابه من قِبل زوجين متفقين على الإنجاب. وكثيرًا ما يكون حمل الأم العازبة حملًا مكرهًا، وغير مرغوب فيه. غير أن هذا لا يعني أن الطفل بعد ولادته يصبح منبوذًا من قِبلها، فأحيانًا يكون هذا المولود محبوبًا بدرجة قوية؛ لأسباب نفسية معقدة أفاض التحليل النفسي كثيرًا في تحليلها وتفسيرها.

إذا كان هذا النوع من الأمهات قادرات على إشباع الحاجات المادية لأبنائهن، بحكم عملهن ووظيفتهن، فإنهن في مقابل ذلك، عاجزات عن إشباع حاجاتهن النفسية والاجتماعية؛ بسبب العمل الذي يلتهم معظم وقتهن. وإذا افترضنا أنهن يؤدين دور الأمومة على أفضل وجه، فإنهن يعجزن عن تجسيد نوع السُّلطة الأبوية ودوره اللازم؛ ليتوحَّد به الطفل خلال تنشئته وتكوينه التربوي. هذا فضلًا عن أن ابن الأم العازبة يظل وحيدًا، حيث يُحرمُ من فرصة المنافسة التي تتم بين الإخوة في الأسرة العادية. كما أن لكل فرد في الأسرة العادية دوره وتأثيره في احتكاكه اليومي بالطفل. ومع ذلك، قد نرى في الواقع المَعِيش العديد من الأمهات العازبات أو الأمهات الأرامل اللواتي استطعن التوفيق في مهمتهن التربوية. هذا الأمر صحيح إذا تعلق فقط بتجنب بعض الصعوبات المادية في الحياة، ولكنه لا يتعلق بتكوين الشخصية بشكل جذري.

إن طفل الأم الأرملة أو العازبة كثيرًا ما يَطرح، في يومٍ من الأيام، أسئلةً من نوع لماذا ليس لي أب على غرار بقية الأطفال في المدرسة؟ مع ما يطبع ذلك من مشاعر نفسية مؤلمة، سواء بالنسبة للطفل أو أمه. وفي مقابل ذلك، نجد الأرملة تقدم صورة مثالية عن الأب المُتوفَّى وتغضُّ الطرف عن جوانب نقصه، وتركز فقط على الجوانب الإيجابية. غير أن هذه الصورة المثالية قد تكون عائقًا أمام التوحُّد بها، لشدة بعدها عن الواقع. ولكن مهما كانت الصورة، فهي لا تعوض الكائن الحي. وهناك في الواقع العديد من الأرامل اللواتي عزفن عن الزواج، بدعوى الإخلاص لصورة الزوج/ الأب المُتوفَّى أو بدعوى أن الزوج الجديد قد لا يحب أطفالهن حبًا كافيًا. وهُنَّ بهذا الاعتقاد يحرمن أبناءهن من وجود صورة رجولية أمامهم، صورة تعدُّ ضرورية جدًا لتطورهم العاطفي السوي. على أن الصورة التي تقدمها المرأة المطلقة عن الأب، ليست بدورها صورة مشرفة في كثير من الأحيان. فكيف يمكن أن تقدم صورة إيجابية عن شخص أصبحت تكنُّ له العداوة؟ وأمر كهذا يجعل التطور العاطفي للطفل يضطرب أمام الصورة السلبية عن الأب التي تتردد باستمرار على مسمعه[1].

سادسًا: الرعاية الوالدية واختلاف أنماط التربية

من غير شك، أن الأسرة تقوم بدور تربوي مهم خلال تنشئة الطفل وتكوينه، وهو دور قد يفوق في أهميته أحيانًا دور المؤسسات التربوية والتعليمية الأخرى التي سينضم إليها فيما بعد. كما أنها تضع الأسس والمرتكزات الأساسية لنضج شخصيته وتفتُّحها في السنوات المبكرة.

١. د. أحمد أوزي، ٢٠٠٢، الطفل والعلاقات الأسرية، المرجع السابق، ص ٦٨.

والأسرة تُعد بمثابة المُختبَر النفسي – الاجتماعي الأول، الذي يكتسب فيه الطفل نماذج من العلاقات والتفاعلات الإنسانية، من خلال احتكاكه المبكر والدائم مع الأبوين والإخوة والأخوات وسائر أفراد الأسرة.

هذا، ويفوق التأثير الذي يُحدثه الأبوان في شخصية الطفل سائر التأثيرات الأخرى التي يخضع لها في الأسرة، باعتبارهما يجسدان نماذج من السلوك ويشجعان الطفل على حذو حذوهما بكيفية مقصودة أو غير مقصودة، وهو ما يُدعى في الدراسات النفسية والاجتماعية "الاتجاه أو النمط التربوي في التنشئة الاجتماعية". وعلى الرغم من صعوبة الحديث عن وجود نموذج تربوي محدد، بسبب السلوك الدينامي الذي يطبع سلوك الأبوين خلال تربيتهما للطفل، حيث يتسم سلوكهما تارةً بالشدة والقسوة والتسلُّط، وتارةً أخرى بالتسامح والتساهل، فإنه مع ذلك، عند القيام بالوصف العام للخصائص المميزة لطبيعة علاقتهما بالطفل، قد يميلان إلى هذا الاتجاه أو النمط أو إلى ذلك في تربيتهما، تبعًا لتمثلهما لمفهوم الطفل، من ناحية، وتبعًا كذلك لما يسعيان إليه في تكوينه وتنشئته من ناحية أخرى. ويُفسر عادة الاختلاف في معاملة الطفل وتربيته تبعًا لاختلاف النظرة إلى ماهيته وطبيعته.

هذا، ويمكن تصنيف هذه الاتجاهات أو الأنماط التربوية في ثلاثة أنماط، وهي:

أ. الاتجاه التربوي الوالدي المتسم بالتسلُّط: وهو أسلوب تربوي في تنشئة الطفل، يفرض فيه الوالدان سلوكهما عليه والتدخل في كل شئونه؛ مما يجعل الأبوين يتحكمان تحكمًا صارمًا ومفرطًا في شئون ابنهما؛ إلى درجة يصبحان فيها متسلطين عليه بشكل يؤدي إلى إلغاء شخصيته وكيانه من جهة، ومن جهةٍ أخرى، يفرضان عليه أداءً يفوق قدراته؛ مما يفضي إلى نتائج عكسية في رعايته.

ب. الاتجاه التربوي الوالدي المتسم بالحماية المفرطة: إن منظر المولود البشري من جهة، وضعفه وعجزه[1]، من جهة أخرى، يستثير والديه ويحفزهما على الاهتمام به. إن المواقف التفاعلية المبكرة للطفل في علاقته بوالديه، والتي يغلب عليها الطابَع العاطفي كثيرًا ما تنسيهما

١. العجز بالنسبة إلى الطفل هو فقدان القدرة. والعجز بشكل عام، عبارة عن الاعتقاد بأن السيطرة على موقف معين أو نتائجه أمر مستحيل. مثل جميع المعتقدات، يتم تعلم العجز. العجز المكتسب مشابه للاعتقاد بالقدرية أي، الاعتقاد بأن نتائج المرء ترجع إلى القدَر أو الحظ أو الصدفة. يمكن أن تكون معتقدات العجز إما عالية أي أنه لا يوجد شيء يمكن لأي شخص القيام به، أو شخصية أي لا يمكنني فعل أي شيء. يرتبط أي نوع من الاعتقاد بالعجز بنقص تحفيزي وسلوكي و / أو عاطفي. لا يميل الأشخاص الذين يعانون العجزَ المكتسب إلى التعلُّم أو الانخراط في سلوك جديد يُحتمل أن يكون فعالًا، ويُظهرون مستويات أعلى من المعتاد من القلق والاكتئاب.

دورهما الطبيعي تجاهه، فينقادان إليه، ويغفلان الأسلوب التربوي القويم، الذي ينبغي أن يتبعاه معه. إنهما يسلكان معه أسلوب "الحماية الزائدة" في علاقتهما به. فهو يمثل قيمة بيولوچية، وقيمة اجتماعية، وقيمة نفسية. إن وجوده يُصبغ على وجودهما حياةً ومعنًى جديدًا، ومن ثمَّة يجب توفير كل شيء له، وبذل كل شيء من أجله إذا أمكن، فهو في نظر والديه أهل لكل رعاية وسعادة واهتمام.

الطفل في هذه الحالة يغدو محور اهتمام والديه، فهو شغلهما الشاغل، لا يتركان له فرصة الشعور بالحرمان أو الإحباط، فكل طلباته تلبى في الحال. وهما بهذا الأسلوب لا يمنحانه فرص الاختبار والتجريب في الحياة، ويحُولان بينه وبين الشمس حتى لا تلفح وجهه، ويحولان بينه وبين الحياة في واقعها الذي ينبغي أن يحتكَّ به، ويستعد لمواجهة مشاكلها وطوارئها. إنهما يحرمانه من فرص الإعداد والتكوين على الطبيعة[1].

ج. الاتجاه التربوي الوالدي المتسم بالتساهل المفرط: الأسلوب التربوي الثالث، أسلوب يختلف عن الأسلوبين السابقين، فهو أسلوب متسم بنوعٍ من التساهل المفرط في التعامل مع الطفل، فالأبوان يتسمان بالتسامح، وعدم محاسبة الطفل أو عقابه. وقد يكون موقفهما هذا ناتجًا في بعض الأحيان من أحد الأسباب التالية:

- الخضوع في الطفولة لمثل هذا الأسلوب التربوي، ويقومان بإعادة إنتاجه مع ابنهما.
- الكراهية اللاشعورية للطفل؛ مما يدفعهما إلى عدم عقابه، من باب التخفيف عن مشاعر الذنب لديهما.
- خضوعهما خلال الطفولة للمعاملة القاسية المفرطة؛ مما يدفعهما لا شعوريًا إلى عدم الوقوع في مثل ما وقعوا فيه.

سابعًا: الرعاية الوالدية حق من حقوق الطفل

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة حول الرعاية الوالدية للطفل (في ١٨ / ٢٠١٩/١٢):

لما كان للرعاية الوالدية هذه الأهمية في تنشئة الطفل وتكوينه، فإن مسئوليته لم تعُد تقتصر على الأسرة والمجتمع فحسب، وإنما غدت مسئولية الدولة، ومسئولية المجتمع الدولي أيضًا. فقد

١. أحمد أوزي، ٢٠٠١، الحماية المفرطة للطفل وأثرها في تكوين شخصيته، في كتاب "علم النفس التربوي" قضايا ومواقف تربوية وتعليمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الرابعة والسبعين للعام ٢٠١٩ في جدول أعمالها، أكَّدت تعزيزَ حقوق الطفل وحمايتها[1]، وركزت كثيرًا في قراراتها على أهمية وضرورة الرعاية الوالدية للطفل. نقتطف من قراراتها بعض البنود التالية:

- " ... وإذ تسلم بأن الأسرة مسئولة في المقام الأول عن تربية الأطفال وحمايتهم، بما يخدم مصالح الطفل الفُضلَى، كما تسلم بضرورة أن ينشأ الأطفال في بيئة أسرية وفي جوٍّ تسوده السعادة والحب والتفاهم من أجل تنمية شخصيتهم على نحو كامل ومتوازن".
- " ... وإذ تعرب عن القلق الشديد لأن الأطفال ذوي الإعاقة وبخاصة الفتيات، يواجهون الوصم أو التمييز أو الإقصاء، ويتعرضون أكثر من أقرانهم للعنف العقلي والبدني والاعتداء الجنسي في جميع البيئات".
- ... و"تُهيب بالدول أن تكفل تمتع جميع الأطفال بحقوقهم المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافةً دون تمييز من أي نوع".
- " نشير إلى حق كل طفل في أن يُسجَّل بعد ولادته فورًا، وفي أن يُمنح اسمًا ويكتسب جنسية ويُعترف به في كل مكان كشخص أمام القانون، على النحو المنصوص عليه في اتفاقية حقوق الطفل".
- ... كما أنها "تدعو الدول إلى توسيع نطاق التعليم الذي يكون دقيقًا علميًا ومناسبًا عمريًا وشاملًا ومراعيًا للسياقات الثقافية".
- و"... تدين بشدة جميع أشكال العنف ضد الأطفال في جميع البيئات، بما يشمل العنف البدني والنفسي والجنسي والتعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المُهِينة وإيذاء الأطفال واستغلالهم، وأخذ الرهائن، والعنف العائلي... والاستغلال الجنسي للأطفال على شبكة الإنترنت أو خارجها، وتسلُّط الأقران بما في ذلك ما يتم منه عبر شبكة الإنترنت...".
- "تشير إلى أن اتفاقية حقوق الطفل تقرُّ بأن الطفل، كي تترعرع شخصيته ترعرعًا كاملًا ومتناسقًا، ينبغي أن ينشأ في بيئة عائلية، وأن للطفل المحروم بصفة مؤقتة أو دائمة من بيئته العائلية أو الذي يُسمح له، حفاظًا على مصالحه الفضلى، بالبقاء في تلك البيئة، الحقَّ في حماية ومساعدة خاصتين توفرهما الدولة...".

1. الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الرابعة والسبعين، ٢٠١٩.

- "... وإذ تعرب عن القلق لأن الملايين من الأطفال في جميع أنحاء العالم لا يزالون محرومين من رعاية الوالدين، مفصولين عن أُسرهم لأسبابٍ عديدة منها، على سبيل المثال لا الحصر، الفقر والتمييز والعنف والإيذاء والإهمال والاتجار بالأشخاص وحالات الطوارئ الإنسانية والنزاعات المسلحة والكوارث الطبيعية وتغيُّر المناخ والهجرة ووفاة أحد الوالدين أو مرضه والافتقار إلى إمكانية الوصول إلى التعليم والخدمات الصحية وغير ذلك من خدمات دعم الأسرة" (قرار الجمعية، ص ١٧٠).

خاتمة

يُعدُّ الطفل اليوم أمل الشعوب، وأثمن رأس المال الذي تراهن عليه، لخوض غمار التنمية الشاملة، وتحقيق التطور والتقدم. فالاستثمار في التربية والتعليم لتنشئة الأطفال، ورعايتهم يحظى بالصدارة في أجندة سياسة الأمم والشعوب التي تتحدى مشاكل المستقبل، وهذا ما يقودها إلى البحث في كل العوائق التي تحُول دون الرعاية اللازمة لأطفالها لإزالتها، وضمان أسمى ما يمكن أن يصلوا إليه، خلال نموهم وتطورهم. وإيمانًا من دول العالم بصدق هذه القضية، فإنها أصدرت مواثيق واتفاقيات دولية تحمي الأطفال من كل أنواع الإهمال وسوء المعاملة، والسعي إلى منحهم أفضل ما عند شعوبها؛ ليعيشوا طفولتهم مفعمين بالغبطة والسرور. ولهذا نجد أن اتفاقية حقوق الطفل تنصُّ في ديباجتها بوضوح، على أهمية البيئة الأسرية للأطفال، وتشدد على مسئولية الدول في ضمان الرعاية البديلة للأطفال المحرومين من البيئة الأسرية (المادة ٢٠). ومع ذلك، فمن غير الواضح فيما يتعلق بمسئولية الدول عن دعم الوالدين في دورهم في تقديم الرعاية وتنفيذ استراتيجيات، لمنع الانفصال غير الضروري للأطفال عن أُسَرهم، وكذلك أهداف الرعاية البديلة ومعايير اتخاذ القرارات بشأن أماكن الرعاية البديلة [1].

إن طفل اليوم هو بالتأكيد أبُ الغد، وإن الطفل الذي يكون عُصابيًا اليوم سيكون أبًا عصابيًا غدًا. وهكذا يتناقل ذلك من جيل إلى جيل، في شبه حلقة مفرغة من الآلام غير المنتهية[٢]. ومن هنا، تدعونا علوم الأعصاب الوجدانية والاجتماعية إلى ثورة تعليمية. "عن طريق معرفة الطفل قبل تربيته وتعليمه معرفة علمية تتجنب الإساءة إليه".

1. https://www.childrightsconnect.org/working_groups/children-without-parental-care

٢. د. أحمد أوزي، ٢٠٠٢، الطفل والعلاقات الأسرية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. ٦٠.

إن صعوبات التعلُّم التي قد يعاني منها الطفل في بعض الأحيان، قد تعود إلى عدة عوامل، إما على المستوى العاطفي، كفقدان عزيز أو تفكُّك أسري أو بسبب القلق والأداء الدراسي، اللذين يشكلان لديه الدافعية والرغبة، والاهتمام أو بسبب الوضعية الاجتماعية والاقتصادية المتدنية للأسرة التي لا توفر له البيئة التمكينية المناسبة[1].

الخلاصة أن الحاجة تدعو اليوم، إلى تربية ورعاية والدية، قائمة على المعرفة العلمية الحديثة، المعرفة التي تلقي الأضواء الكاشفة على قدرات عقول الأطفال، وإكراهاتهم خلال تربيتهم وتعليمهم. وبوسع علم النمو النفسي التجريبي للطفل، وعلوم الأعصاب المعرفية والتربوية، أن يساعدا في تفسير لماذا بعض مواقف التربية والتعلم أكثر فعَّالية من غيرها.

إنه لا يُعقل أن يظل المُربُّون اليوم، مخططون كانوا أو معلمون أم آباء وأمهات، في منأى عن المعرفة العلمية، التي تشكل مفتاح الممارسة التربوية والتعليمية المقتدرة، وعدم ترجمتها في الواقع العملي من أجل إعداد جيل كفيل بتحدِّي مشكلات عصره.

١. د. أحمد أوزي، ٢٠١٥، التعليم والتعلم الفعال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.١٦٨.

المراجع

– د. أحمد أوزي، ٢٠١٥، التعليم والتعلم الفعال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

– د. أحمد أوزي، ٢٠٠٢، الطفل والعلاقات الأسرية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

– د. أحمد أوزي، الذكاء والغذاء العاطفي للطفل، مجلة علوم التربية، العدد الحادي عشر، أكتوبر ١٩٩٦.

– د. أحمد أوزي، ٢٠٠١، الحماية المفرطة للطفل وأثرها في تكوين شخصيته، في كتاب "علم النفس التربوي" قضايا ومواقف تربوية وتعليمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

– الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الرابعة والسبعين، ٢٠١٩.

- Dr Catherine Gueguen (2014). Pour une enfance heureuse, Robert Laffont, Paris.
- Dr D. Winnicott (1957). L'enfant et sa famille, Payot, Paris.
- Michelle Bourassa & Mylène Menot-Martin& Ruth. Philon(2007).Neurosciences et éducation pour apprendre et accompagner, deboeck, Louvain.
- https://www.livescience.com/54605-why-are-babies-helpless.html.
-https://www.childrightsconnect.org/working_groups/children-without-parental-car